الفَصْلُ الثّانِي

العلاج النفساني في القرون المسيحية الأُولى

أ) علاج المرض على يد السيد المسيح

نشأَ السيد المسيح عيسى بن مريم بين اليهود، وشب وترعرع في بيئة يهودية، ونظر حوله فوجد قومه قد ضلوا السبيل، وأَهملوا تعاليم الدين القويم الذي أَتى به موسى عليه السلام، فهب بتأييد من ربه يرشدهم إِلى الحق، ويدعوهم إِلى الخير، ويُدافع عن الفقراء والمساكين. فآمن به فريق منهم، وفي مُقدمتهم الحواريون المخلصون. وتقص علينا الأناجيل بطُرق وأَساليب فيها شيء من الاختلاف أَنه عالج المرضى بحنو ورفق، وأَعاد إِليهم صحتهم الجسمية والعقلية معًا. ويذكر القرآن الكريم أَنه عليه السلام أَبرأَ الأَكمه والأَبرص وأَحيا الموتى بِإِن الله، مُعجزة له، ودليلًا على صحة رسالته من لدن ربه.

وقد علمت فيما مضى موقف الفلسفة من هذه الأَعمال الغريبة الخارقة للعادة، وفهمت أَن النفوس القوية الشريفة تقرب من العالم الروحاني، ويكون لها من التأثير ما يشبه المبادئ العُليا.

وقوة النفس وشرفها وعلو منزلتها كل ذلك كان مُتوافرًا في عيسى بن مريم على أَكمل وجه، وقد كان عليه السلام واثقًا بنفسه، مُوقنًا بتأييد ربه، وحينئذ يكون هو في نفسه أَهلًا لتولي العلاج النفساني؛ لقوة نفسه

وشرفها وثقته بها، وبمقدرته على إجابة دعوة من يستغيثون به، ويرجون معونته على التخلص من أَمراضهم.

وإننا إذا درسنا الحالات التي عرضت له أَو عُرِضَتْ عليه وحللنا نفسية من استغاث به وجدنا أَن شرط الإِيمان والاعتقاد فيه والثقة به مُتوفر في كل منهم.

وإِليك ما ورد في إِنجيل مرقس خاصًا بشفاء المرضى على يديه عليه السلام:

قال مرقس: «ثم دخلوا كفر ناحوم، وللوقت دخل المجمع[١] في السبت، وصار يعلم فبهتوا من تعليمه؛ لأَنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة، وكان في مجمعهم رجل به روح نجس فصرخ[٢] قائلًا: آه! ما لنا ولك يا يسوع الناصري، أتيت لتهلكنا، أَنا أَعرفك من أنت، أنت قدوس الرب. فانتهره يسوع قائلًا: اخرس[٣] واخرج منه، فصرع الروح النجس، وصاح بصوت عظيم وخرج منه.. ولما خرجوا من المجمع جاءوا للوقت إِلى بيت سمعان، وأَندراوس مع يعقوب ويوحنا، وكانت حمو سمعان مُضطجعة محمومة، فللوقت أَخبروا عنها، فتقدم وأَقامها مُمسكًا بيدها، فتركتها الحُمى حالًا وصارت تخدمهم. ولما صار المساء إِذ غربت الشمس قدموا إِليه جميع السقماء والمجانين، وكانت المدينة كلها مُجتمعة على الباب

---

١٧) المجمع كنيسة اليهود.

١٨) المفهوم أَن الذي صرخ هو الروح النجس الذي احتل جسم الرجل وذلك طبقًا للعقيدة التي كانت مُنتشرة بين اليهود في ذلك الوقت.

١٩) الخطاب مُوجه للروح النجس كما لا يخفى.

فشفى كثيرين كانوا مرضى بِأَمراض مُختلفة وأَخرج شياطين كثيرة، ولم يدع الشياطين يتكلمون لأَنهم عرفوه»[١].

ويروي لوقا هذا الحادث نفسه مع شيء قليل من التغيير، ولأمر ما لم يذكرها متى ولا يوحنا في إِنجيليهما.

ومهما يكن من اختلاف أَصحاب الأَناجيل في رواية هذا الحادث فإِنه يدل على مبلغ اعتقاد القوم في قوة السيد المسيح وسلطانه على العقول، ومقدرته على العلاج الروحاني.

وإِليك حادثين آخرين يُؤيدان ما قلناه:

(١) يقول متى: «وفيما هو يُكلمهم بهذا إِذ برئيس قد جاء فسجد له قائلًا: إِن ابنتي الآن قد ماتت، لكن تعال وضع يدك عليها لتحيا، فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه، وإِذا امرأَة نازفة دم مُنذ اثنتي عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هدب ثوبه؛ لأَنها قالت في نفسها إِن مست ثوبه فقط شفيت. فالتفت يسوع وأَبصرها فقال: ثقي يا ابنة؛ إِيمانكِ قد شفاكِ، فشفيت المرأَة من تلك الساعة...»[٢].

(٢) يقول متى أَيضًا: «وفيما يسوع مُجتاز من هناك تبعة أَعميان يصرخان ويقولان: ارحمنا يا ابن داود! ولما جاء إِلى البيت تقدم إِليه الأَعميان فقال لهما يسوع: أَتُؤمنان أَني أَقدر أَن أَفعل ذلك؟ قالا له: نعم يا سيد. حينئذ لمس أَعينهما قائلًا: "بحسب إِيمانكما ليكن لكما"

---

٢٠) (١) انجيل مرقس ص ١ (٢٣ – ٢٨).

٢١) (٢) إِنجيل متى ٩ (١٨ وما بعدها).

فانفتحت أَعينهما»[1].

وإنك لو تتبعت جميع حالات العلاج التي وردت في الأَناجيل لوجدت أَنها كلها ناطقة بصدق ما أَقول، على الرغم من اختلاف أَصحاب الأَناجيل في وصف حالات العلاج، وما أَحاط بها من ظروف.

وإذن يكون علاج السيد المسيح لهؤلاء المرضى علاجًا نفسانيًا، مُستوفيًا لشرطيه الأَساسيين، سواء أَكان المرض عقليًا كما في الحالة الأُولى: حالة المصروع، أَو جُثمانيًا كما في الحالتين الأَخيرتين: حالة المرأَة التي لازمها نزيف الدم، وحالة الأَعميين.

رب قائل يقول: إذا كان علاج السيد المسيح للمرضى عاديًا، مُتمشيًا مع طبائع الأَشياء فأَين مُعجزته؟ فأَقول: إن المعجزة هي الأَمر الخارج للعادة يظهره الله على يد مُدعي الرسالة دليلًا على صحة دعواه، وإن هذا التعريف ينطبق على أَعمال السيد المسيح؛ فقد جرى على يديه أُمور غير مأَلوفة، أَوقعت القوم في حيرة وارتباك، وإن صدور هذه الأَعمال منه دليل على قوة نفسه وشرفها، وما هذا وذاك إلا منحة إلهية وموهبة صمدانية لا يهبها الله إلا لعباده المخلصين.

ولا إخال القارئ الكريم إلا مُتفقًا معي على أَن شفاء المرضى بالطريقة التي اتبعها السيد المسيح عليه السلام مُتمش مع المبادئ الفلسفية، جار على أُصول علم النفس، مُستوف للشرطين الأَساسيين: إيمان المريض، وقوة نفس المعالج.

---

٢٢) إنجيل متى ٩ (١٧ وما بعدها).

ب) علاج المرضى على يد القديسين المسيحيين

لم يلحق السيد المسيح بالرفيق الأَعلى إلا بعد أَن ناشد الحواريين أَتباعه المقربين إليه أَن ينشروا رسالته، ويذيعوا في الناس تعاليمه، ويُعالجوا مرضاهم.

يقول لوقا في هذا الموضوع:

«وقد دعا تلاميذه الاثنى عشر وأَعطاهم قوة وسلطانًا على جميع الشياطين، وشفاء الأَمراض، وأَرسلهم ليركزوا بملكوت السموات ويشفوا المرضى»[١].

وسواء أَكان المراد من «الشياطين» المارقين عن الحق، ومن «المرضى» ضعاف النفوس المنغمسين في الرذيلة، أَم كان المراد من «الشياطين» الجن أَو الأَرواح الخبيثة التي كان من المعتقد في ذلك الوقت أَنها تسكن أَجسام الناس، وتسبب لهم الصرع أَو الجنون، ومن «المرضى» المصابين بالأَمراض الحقيقية الجثمانية أَو العقلية. أَقول سواء أَكان المراد من كلام المسيح معناه المجازي أَو معناه الحقيقي، فقد روى أَن بعض هؤلاء الرسل على الأَقل قد اقتفوا أَثر زعيمهم في الدعوة إلى ملكوت السموات، وعلاج مرضى الأَجسام أَو العقول بالطريقة الروحانية نفسها.

فقد روى في سفر أَعمال الرسل أَن بطرس عالج رجلًا أَعرج بأن نظر إليه وقال له:

---

٢٣) (١) لوقا ٩ (١٢).

«باسم يسوع المسيح الناصري قم وامش». وأَمسكه بيده اليمنى وأَقامه، ففي الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب ووقف وصار يمشي[١].

وورد في السفر نفسه أَن: «بطرس وهو يجتاز الجميع نزل أَيضًا إِلى القديسين الساكنين في لُدَّة فوجد هُناك إِنسانًا اسمه إِيناس مُضطجعًا على سرير مُنذ ثماني سنين، وكان مفلوجًا (مُصابًا بالشلل)، فقال له بُطرس: يا إِيناس يشفيك يسوع المسيح قم وافرش لنفسك». فقام للوقت، ورآه جميع الساكنين في لُدَّة[٢].

ويري كاتب السفر السابق ذكره أَن حنانيا أَحد تلاميذ المسيح مضى إِلى بيت فيه رجل أُصيب بالعمى اسمه «شارل» ووضع عليه يده، وتحدث معه، فللوقت وقع من عينيه شيء كأَنه قشور فأَبصر في الحال[٣].

ولما تكن القدرة على العلاج الروحاني مقصورة على الحواريين؛ فقد روي أَن القديس مارتين الطوروسي الذي عاش في أَواخر القرن الرابع الميلادي عالج صبيتين كانت إِحداهما مفلوجة، وكانت الأُخرى خرساء، وذلك بِأَن ص الزيت في فميهما.

ويُسمى علاج هؤلاء العلاج بالكرامة، أَما علاج السيد المسيح فيُسمى العلاج بالمعجزة، وأَما العلاج النفساني في العصور القديمة فقد كان في الغالب علاجًا بالسحر.

---

٢٤) (١) أَعمال الرس ٣ (١ وما بعدها).

٢٥) (٢) أَعمال الرس ٩ (٣٣، ٣٤).

٢٦) (٣) أَعمال الرس ٩ (١ – ١٩).

وقد شاع أَمر العلاج بالكرامة خلال القرون الوسطى، بل إن سوقه ظلت نافقة إلى عصرنا هذا بين أَرباب الديانات المختلفة، وكانت طريقة العلاج ولا تزال واحدة تقوم على أَساس الإيمان والعقيدة، لا يختلف بعضها عن بعض إلا في اسم الإله الذي يُستعان به.

ويرى الدكتور جانيه (pierre Janet) أَن طريقة العلاج بالكرامة كانت تُتبع بشكل يلفت الأَنظار عند مقبرة القديس ميدارد[١] بفرنسا حوالي سنة ١٧٣٦م.

ويحكي الأَستاذ بيرسفال لَاوُل[٢] في كتاب نشره سنة ١٨٩٤م أَن اليابانيين كانوا يتبعون في علاج الأَمراض طرائق تشبه كثيرًا ما كان مُتبعًا بين قدماء المصريين والإِغريق.

وقد حظى رجال الدين من المسيحيين بقسط وافر من النفوذ والسلطان وأثرت عنهم القدرة على علاج المرضى، وقد مارسوا في كثير من الحالات مهنة تطبيب العقول، وعادت بعض العقائد القديمة إلى السواد الأَعظم من الناس، وأَخذ المرضى بعقولهم يلجئون إلى رجال الدين، ويتوسلون إليهم أَن يخرجوا الأَرواح الخبيثة من أَجسامهم لتعود إليهم صحتهم العقلية.

وكان رجال الدين أَنفسهم يُشاطرون العامة هذه العقيدة، أَو على الأَقل يتظاهرون بِأَنهم يُشاطرونهم إياها.

وكلما قوي النفوذ الديني في القرون الوسطى اشتد رجال الدين تعسفًا في مُعالجة مرضى العقول. يقول الدكتور لُدْج باتش[٣] في كتابه عن الأَمراض

---

٢٧) St Medard

٢٨) Pircival Lowell.

٢٩) A Manual of Mental Diseases, by Lodge Patch Page 2.

العقلية: «إن آلافًا مُؤلفة من مرضى العقول الذين عرفوا بالوداعة ودماثة الخُلق كانوا في عصر الاضطهاد الديني في أُوربة يُحرقون وهم أَحياء، ومن سمح لهم بالبقاء من هؤلاء البائسين كانوا يُعذبون عذابًا أَليمًا، ويُمثل بهم تمثيلًا شنيعًا، الحرق بالنار أَسهل منه وأَخف».